تاريخ ما بين السطور
سر البراميل

رمضان مصطفى سليمان

ظلال القصر الأخير

كانت السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى تضجُّ بما يشبه الجنون: ملوك يسقطون تحت رصاص الغدر ، وزراء ينتحرون في مكاتبهم ، ورجال مالٍ يختفون كما لو ابتلعتهم الأرض . كانت أوروبا بأسرها تعيش في غليانٍ صامت ، يتنفس الناس فيه التوجس بدل الهواء ، وكأن القارة العجوز تنتظر نبوءة قديمة تتحقق.

أما **المجر**، تلك البقعة التي لا تزال معلقة بين المجد النمساوي والإرادة المجرية ، فكانت تبدو كأنها واحةُ أمانٍ وسط إعصار . أرضٌ خضراء تمتدّ حتى الأفق ، وأسواقٌ تنبض بالحياة ، وأسعارٌ تُغري السائحين. وكان من يقول إن في بودابست سحرًا يجعل الإنسان ينسى حتى نفسه ، وإن فتيات الريف المجريات يحملن في عيونهن شيئًا من الغموض والوداعة ، وفي ابتساماتهن وعدًا لا يُقال.

في صباحٍ من ربيع عام **1913**، دخل رجل في الأربعين قريةً صغيرة تُدعى **شينكوتا** . كانت القرية تفيق على ضبابٍ خفيف ، والحقول تتلألأ بندى الفجر . سار الرجل بخطواتٍ مترددة نحو **مركز الشرطة** ، وكأنما يخشى أن يسمع وقع أقدامه أحد.

كان يرتدي معطفًا أسودَ طويلًا ، يعلوه غبار السفر ، وعلى وجهه ملامح رجلٍ لم يذق النوم منذ ليالٍ طويلة.

في الداخل ، كان الضابط **أدولف ترويير** ، المعروف بدماثته وطيبة قلبه ، يقرأ صحيفة الصباح. رفع رأسه مبتسمًا حين دخل الغريب.

ترويير : أهلًا وسهلًا بك يا سيدي ، تفضّل ، بأي خدمة أستطيع أن أُسديها ؟

الغريب : أشكرك ، لا خدمة بعينها... أردت فقط تسجيل اسمي وأوراقي في سجل الشرطة ، كما تقتضي القوانين.

ضحك ترويير، وقد بدا عليه الفرح بزيارةٍ تكسر رتابة يومه.

ترويـر : حصيفٌ أنت يا سيدي ، لكني لست العمدة . الحقيقة أن العمدة توفي منذ أسابيع ، والإدارة الإمبراطورية لم تُعيّن بعدُ بديلًا . السياسة تشغلهم عنّا طبعًا ، وهكذا وجدت نفسي، بحكم الأقدمية، أقوم مقامه مؤقتًا.

الغريب : أهنئك إذن ، يا سيدي العمدة المؤقت.

ترويـر : لا ، لا ، نادِني ترويـر فقط . كل زائر لشينكوتا يصبح من العائلة . أوراقك سليمة يا سيدي ، ولكن أين تنوي الإقامة ؟ يمكنني أن أقترح فندقًا مريحًا ورخيصًا كذلك

أطرق الغريب لحظة، ثم قال بصوتٍ خافتٍ فيه بُعدٌ غريب:

الغريب : هذا كرمٌ منك، يا كابتن ترويـر.

ترويـر ضاحكًا : كابتن ؟ ليتني! أنا مجرد ضابط صفٍّ بسيط . لكن أهل القرية يعاملونني كما لو كنت والدهم جميعًا . أما الفتيات الجميلات... ثم يضحك بخجلٍ طفولي. بالمناسبة ، هل زيارتك للسياحة؟

ساد صمتٌ قصير ، كأن السؤال أيقظ في الرجل شيئًا خفيًّا.

الغريب : في الواقع... جئت أبحث عن رجلٍ يُدعى **بيلانكس**.

ابتسم ترويـر بانبساطٍ فوري:

ترويـر : آه ، الكونت بيلانكس ! إنه صديقي العزيز . انظر من النافذة ، هناك قصره البديع في مواجهة مبنى المعمودية ، أرأيت ؟

الغريب : أجل... قصرٌ بديع فعلًا.

ترويـر : هل أنت قريب له ؟

الغريب :لا... صديق قديم فقط.

بدا على ترويـر الحماس كطفلٍ وجد لعبةً جديدة:

ترويـر :إذًا لا وقت نضيعه ! تعال ، سأوصلك إلى القصر بنفسي. صحيح أن الكونت مسافر الآن إلى بودابست ، لكن من الطبيعي أن تُقيم في قصره ريثما يعود.

ارتبك الغريب وقال على عجل:

الغريب :كلا ، أفضل أن...

غير أن تروير قاطعه بحماسةٍ وشيءٍ من الإصرار:

تروير :بل يجب أن تقيم في القصر يا سيدي . الكونت سيغضب أشدّ الغضب إن علم أنك نزلت في فندق . المفاتيح كلها معي ؛ فهو يعهد إليَّ بحراسة القصر ، خصوصًا في الأيام الأخيرة.

سكت لحظة ، ثم أضاف بصوتٍ خافتٍ فيه غموض

تروير : نعم... الأيام الأخيرة بالذات.

X

حين خرجا من المركز، كانت القرية تغتسل بضوء الشمس. الأطفال يركضون حفاةً خلف كلبٍ صغير ، والعجائز يجلسن عند أبواب البيوت يراقبن المارة في فضول . أما الغريب فكان يمشي بصمتٍ متوتر ، كأن كل خطوة على تراب القرية توقظ في داخله ذكرى غامضة.

لماذا عدتَ يا لاديسلاف ؟ ألم تقسم ألا تطأ هذه الأرض ثانية ؟ عشرون عامًا مضت ، والوجوه التي أحببتها ذابت في النسيان...

كان يحدث نفسه بصوتٍ داخليٍ حارق . شعره الرمادي يلمع تحت الشمس ، ويداه ترتجفان كمن يحمل ثقل ماضٍ لا يُحتمل.

وصل الاثنان إلى القصر. مبنى عتيقٌ بواجهاتٍ حجرية تكسوها شقوق الزمن ، تحيط به حديقةٌ مترامية الأطراف ، تُذكّر بزمنٍ كانت فيه الموسيقى والضحك يملآن المكان.

تروير : أليس رائعًا؟ كم من الحفلات كانت تُقام هنا ! لكن... منذ وفاة السيدة الكونتيسة ، تغيّر كل شيء . الكونت لم يعد كما كان. انعزل ، صار لا يغادر غرفته إلا نادرًا. حتى خدم القصر غادروه واحدًا بعد الآخر.

أصغى الغريب صامتًا. كان يعرف كل ذلك ، بل أكثر مما قال تروير . يعرف أن الكونت بيلانكس لم يتعافَ من موتها أبدًا... وأن وراء تلك الجدران سرًّا دُفن معه منذ عشرين عامًا.

حين دخل القصر، خُيّل إليه أنه دخل ذاكرته . رائحة الخشب القديم ، الأثاث نفسه ، اللوحات ذاتها على الجدران ، وكل زاويةٍ تستحضر وجهًا أو كلمة.

ها هي الغرفة التي ضحكت فيها ماري آخر مرة... هنا وضعتَ يدك على خدّها ووعدتها ألا تفترقا... ثم رحلتَ ، وتركتَها تموت وحدها.

شعر بشيءٍ يخنقه . جلس على مقعدٍ طويل قرب المدفأة الباردة ، وأخذ ينظر إلى اللهب الغائب كأنه يراه.

ترووير مبتسمًا : يبدو أنك تعرف القصر جيدًا، يا صديقي.

الغريب بمرارة : أكثر مما ينبغي.

X

في الليل، جلس وحده في غرفةٍ تطل على الحديقة . كانت الرياح تمرّ كأنها أنفاس الموتى ، والساعة القديمة في الردهة تدقّ ببطءٍ مهيب . حاول أن ينام ، لكن النوم كان بعيدًا عنه كالسلام.

هل كان ينبغي أن أعود ؟ ماذا أريد حقًا ؟ أن أرى بيلانكس ؟ أم أن أواجه نفسي القديمة ؟

كانت الأصوات من الخارج تتلاشى ، وتتعالى في داخله أصواتٌ أخرى – ضحكات ، نداءات ، همسات حبٍّ لم تكتمل . ثم وجه ماري ، الكونتيسة ، يطلّ من عمق الذاكرة بعينيه المبللتين بالوداع.

قالت لي يومها:

‘‘ ستعود حين يكون الأوان قد فات.’’

وها أنا أعود ، بعد أن فات كل شيء.

طرق خفيف على الباب أيقظه من دوّامته . كان **ترووير** يحمل مصباحًا صغيرًا.

ترووير :سامحني على الإزعاج ، ظننت أنك ربما تحتاج شيئًا. بالمناسبة ، هل تعرف أن الكونت تلقى تهديداتٍ في الأسابيع الماضية؟

الغريب باهتمام : تهديدات ؟ من ؟

ترووير : لا أحد يعلم. رسائل غامضة بخطٍّ لا يشبه أحدًا من أهل القرية. هو نفسه لم يشكُ ، لكنه صار أكثر حذرًا. لذلك أوصاني أن أراقب القصر في غيابه.

الغريب : وهل تظن أن هناك من يكرهه ؟

ترويير : من يملك المال والنفوذ يُولّد الكراهية ، يا صديقي. ثم إن السياسة الآن لا ترحم أحدًا. بودابست تغلي ، والنمسا تنزف ، وكل شيء على وشك الانفجار.

صمت لحظة، ثم نظر إلى الغريب نظرةً فاحصة:

ترويير : لكن قل لي... ألم تلتقِ الكونت منذ زمنٍ بعيد ؟

الغريب بصوتٍ خافت : منذ عشرين عامًا. كنا شابين نحلم بتغيير العالم. هو اختار السلطة ، وأنا اخترت الصمت. وها نحن نلتقي من جديد ، على أطلال الحلم.

X

في اليوم التالي، استيقظ الغريب على صخبٍ في القرية . أحدهم جاء من بودابست يحمل أنباءً عن **اغتيال ولي عهد النمسا ، الأرشيدوق فرانز فرديناند** . ضجّت القرية بالهمهمات ، ووجوه الناس تعكس خوفًا غامضًا.

ترويير مرتبكًا : الأمور تسير إلى الأسوأ، يا سيدي. يقولون إن الحرب قادمة لا محالة.

أما الغريب فظل صامتًا ، يحدق في الأفق كمن يرى ما لا يراه الآخرون.

الحرب... إذًا بدأ السقوط . كم مرة أخبرته أن الطموح السياسي طريقٌ إلى الهاوية ! لكنه لم يسمع . لا أحد يسمع حين يظن نفسه خالدًا.

في المساء ، عاد إلى القصر وحده . تجوّل بين الغرف كمن يودّع بيتًا يعرف أنه لن يعود إليه. وقف أمام لوحةٍ قديمة للكونتيسة ماري، وابتسم ابتسامةً شاحبة.

الغريب هامسًا : سامحيني ، ماري. عدتُ بعد فوات الأوان... كما قلتِ لي.

وفجأةً، انفتحت أبواب القاعة ، ودخل **الكونت بيلانكس** نفسه، متعبًا من السفر ، وجهه شاحب كأنه قادم من قبر.

بيلانكس مندهشًا : لاديسلاف؟ أهذا أنت حقًّا ؟

الغريب : نعم ، يا صديقي القديم. جئت لأراك... قبل أن تبدأ النهاية.

بيلانكس : أيّ نهاية تعني ؟

الغريب :نهاية الإنسان الذي أراد أن يحكم العالم، فخسر نفسه.

جلس الاثنان في صمتٍ طويل. لم تكن الكلمات ضرورية؛ كان كلٌّ منهما يرى في الآخر ما يخشاه في نفسه.

بيلانكس بصوتٍ متهدج : هل جئت لتغفر ؟

الغريب : جئت لأتذكر. وربما... لأنسى.

X

في الأيام التالية ، كانت المدافع تُقرع في الصحف قبل أن تُقرع في الميادين . الإمبراطورية تتهاوى ببطء ، والقرية الصغيرة لم تعد تعرف الهدوء . أما القصر ، فقد صار كأنه جزيرة معزولة في بحرٍ من القلق.

وفي إحدى الليالي ، وُجد **الكونت بيلانكس** ميتًا في غرفته، والباب مغلق من الداخل.

كتب في مذكرته الأخيرة :

" الحرب بدأت في الخارج ، لكنها كانت تعيش في داخلي منذ زمنٍ بعيد".

أما الغريب **لاديسلاف** ، فقد اختفى فجأة ، كما جاء، ولم يُرَ له أثر. قال ترويير بعد ذلك إن القصر أصبح مسكونًا ، وإنه كلما مرّ أمامه ليلًا ، يسمع صوتين يتحاوران في الظلام صوتين يشبهان الماضي وهما يتجادلان حول معنى الغفران.

X

هكذا انتهت قصة رجلين حملا في قلبيهما أعباء عصرٍ بأكمله ، عصرٍ كانت فيه **المجر** جنةً على سطح بركان ، وكانت الصداقة مرآةً للفلسفة ، والحبّ سؤالًا لم يُجب عليه التاريخ.

وربما كان ما جرى هناك ، في قصر بيلانكس، ليس إلا صورةً مصغّرة لما جرى في أوروبا كلها :

حربٌ بين الإنسان ونفسه ، قبل أن تكون بين الأمم.

ظلال الذاكرة

كانت الأمسية تميل إلى برودة غامضة حين توقّف الغريب عند بوابة البيت الريفي . خيّم على الأجواء سكون ثقيل لا يقطعه سوى صرير الريح بين الأشجار العارية . هناك ، في ذلك الركن المنعزل من القرية ، وقف ضابط الصف أدولف ترويرِ يرمق الرجل الغريب بنظرات متفحّصة ، قبل أن يقول بصوتٍ يحمل خليطًا من الترحاب والحذر:

" لقد تعرّض صديقي المسكين لحادثة محزنة ، و مع هذا فإني أصرّ على أحد أمرين : إمّا أن تنزل في القصر حتى عودة صديقك ، أو أن تقيم في بيتي ضيفًا عزيزًا مكرّمًا ".

صمت الرجل الغريب قليلًا، ثم وافق على الإقامة في بيت ترويرِ. لم يُدرك الضابط الساذج رغم نشاطه وذكائه الظاهر أن قبوله هذا الضيف سيوقظ في بيته أرواحًا نائمة من الماضي . كان الغريب هادئ الملامح ، ذا نظرة بعيدة كأن عينيه تسبحان في ذكريات لا يعرف أحد عمقها . ذكريات قديمة .

قدّمه ترويرِ إلى زوجته تريزا، المرأة التي بدت عليها علامات الوقار الممزوج بالصلابة ، وأوصاها بإعداد غرفة للضيف في الطابق العلوي . صعدت بهدوء ، بينما أخذت ابنتها " جريتا " إلى الحديقة الصغيرة خلف البيت ، وقالت لها بلهجة لا تخلو من القلق :

" اسمعي يا جريتا ، لا تجربي سحر جمالك في هذا الرجل . إنه في الأربعين ، وأغلب الظن أنه متزوج . إياكِ أن تقتربي من غرفته ".

لم تجب جريتا ، لكن في عينيها لمعان فضولٍ طفوليّ ، كأنها وجدت في الغريب لغزًا يستحق أن يُحلّ . في تلك اللحظة ، كان الظلام قد بدأ

يزحف نحو النوافذ ، والبيت يغرق في صمتٍ غامض كأن الجدران نفسها تنصت.

بعد العشاء ، اجتمع الجميع حول المائدة . كانت الأضواء الصفراء تتماوج فوق وجوههم ، والهدوء ينساب بين الكلمات . بدأ ترويز الحديث وهو يصبّ كأس النبيذ :

" إذن أنت صديق الكونت كيس ؟ "

" أجل يا سيد ترويز ".

" عجيب! فأنا أيضًا من أعزّ أصدقائه . ومع ذلك ، كانت زوجتي تريزا تحذرني منه في أول معرفتي به ".

رفعت تريزا رأسها وقالت بحدّة أنثى تعرف خفايا الناس :

" ولِمَ لا أحذّرك ؟ إن زوجة الكونت ، الكونتيسة ماريا، كانت امرأة فاتنة الجمال ، ذات جاذبية لا تقاوم ، لكنها لم تعرف يومًا حدود الوقار . كانت تعامل الرجال بأسلوب لا يليق بالسيدات المحترمات ".

ضحك ترويز محاولًا كسر توتر اللحظة :

" تريزا ! أنتِ تبالغين دائمًا . لم أسعَ أنا إلى صداقته، بل هو من جاء إليّ ذات يوم من ربيع العام الماضي . أتى بسيارة لم نرَ مثلها في حياتنا ، يقودها رجل يُدعى بول بيهاري ، سكرتيره وسائقه الشخصي ".

هنا ألقى الغريب نظرة طويلة على النار المشتعلة في الموقد ، وكأن شيئًا في الاسم حرّك داخله ذكرى مؤلمة . قال بصوتٍ خافت :

" بول بيهاري... اسم لم أسمع به من قبل ".

استطرد ترويز متحمسًا، غافلًا عن تغيّر ملامح ضيفه :

" كان الكونت بيلاكيس رجلًا وسيماً ، لطيف المعشر ، كريم اليد . في البداية لم يكن يقبل بخدمٍ دائمين في القصر، بل ثلاث نساء من القرية يأتين في النهار فقط. أما سكرتيره بول ، فقد كان يفعل كل شيء : يطبخ ، ويكتب ، ويقود السيارة ".

تدخّلت تريزا فجأة وقد اشتعلت ملامحها بالغضب المكبوت :

"وهل ستخبر ضيفنا بما لم تجرؤ على قوله ؟ عن علاقته بتلك المرأة ؟ عن الخطيئة التي خبأها القصر وراء جدرانه ؟ "

أطرق ترويز رأسه وقال في نبرة حاول أن يجعلها هادئة :

" يا تريزا، هذه شائعات القرية ، لا أكثر ".

لكن الزوجة لم تسكت ، بل رفعت صوتها كأنها تُعلن أمام التاريخ شهادةً أخيرة :

" ليست شائعات! لقد رآهما الناس بأعينهم. الكونتيس ماريا والسائق بول على شاطئ النهر ، يتهامسان كالعاشقين دون حياء . وعندما كان الكونت يسافر إلى بودابست ، كان بول يصبح سيد القصر الحقيقي . لا أحد في قريتنا الصغيرة يجهل ذلك ".

ساد صمتٌ ثقيل. لم يُحرّك الغريب ساكنًا ، غير أن ملامحه كانت تتبدل تدريجيًا ، كأن وجهه يتحوّل إلى مرآة لوجعٍ قديم.

قال ترويز بصوتٍ خافت ، فيه نغمة من الحزن :

" رحمها الله. فلندع الماضي وشأنه ، ولا نذكر الكونت إلا بخير ".

هنا تنفّس الضيف بعمق ، وأغمض عينيه لحظة كأنه يقاوم رغبة في الصراخ . وفي داخله بدأ تيار الوعي يتدفّق بلا توقف :

" ماريا... أكان ذلك اسمها حقًا ؟ أم أن الذاكرة تخونني من جديد ؟ تلك الابتسامة ، تلك الليالي في القصر حين كانت الموسيقى تملأ الممرات... كنتُ أسمع ضحكتها تختلط بصوت المطر على النوافذ . ثم الصمت . الصمت الذي لا ينتهي ".

فتح عينيه ، وحدّق في اللهب المتراقص أمامه ، ثم قال بنبرة غامضة مبهمة :

" وأنتما، هل تؤمنان بأن الخيانة تُغفر ؟ " .

نظرت إليه تريزا بدهشة ، أما ترويز فحاول أن يضحك ليتخفف من ثقل السؤال :

" يا سيدي، هذا سؤال للفلاسفة ، لا للجنود ".

لكن الغريب لم يضحك . قال بهدوءٍ بارد:

" ربما، غير أن الفلاسفة أنفسهم كانوا يومًا عشاقًا مخذولين ".

انقبض قلب تريزا ، وشعرت بشيء مظلم يزحف في أجواء الغرفة . كان في صوت الرجل ما يبعث على القلق ، وما يشبه الاعتراف المبطّن. همّت أن تتكلم ، لكنه استأذنهم بلطف وصعد إلى غرفته .

حين أغلق الباب وراءه ، عمّ السكون أرجاء البيت . في الغرفة العلوية ، جلس الرجل قرب النافذة ، يراقب ضوء القمر وهو ينساب فوق الحديقة .

كم تشبه تلك الحديقة حديقة القصر القديم... نفس الشجرة ، نفس الرائحة ، حتى صوت الريح يهمس بالأسماء التي ظن أنه نسيها.

أخرج من معطفه صورة صغيرة، باهتة الأطراف . وجه امرأة تبتسم بعذوبة لا تخلو من الخداع .

" ماريا "...

كانت صورتهما يوم الزفاف.

إذن هو... الكونت بيلاكيس نفسه ، العائد من ظلال الماضي .

انهمرت عليه الذكريات كالسيل : خيانة ، دموع ، عزلة ، ثم تلك اللحظة التي عاد فيها ليجد القصر خاليًا إلا من جثة امرأته الغادرة والسائق الميت بجانبها . كيف ماتا ؟ هل قتل أحدهما الآخر؟ أم أن القدر وحده كتب النهاية ؟ لم يعرف ، ولم يسعَ لأن يعرف . حمل جراحه وغادر ، هائمًا بين المدن ، حتى وصل إلى هذه القرية ، إلى بيت ضابط صف كان يظنه صديقًا بريئًا.

وفي الأسفل ، كانت تريزا تتحدث مع زوجها بصوت خافت :

" هناك شيء غريب في عيني هذا الرجل ، يا أدولف. كأنهما رأتا الموت من قريب ".

" ربما هو التعب ، أو الحزن على صديقه الكونت ".

"بل شيء أعمق . أخشى أن يكون قد جاء يبحث عن شيء ضاع في ذلك القصر اللعين ".

لم تكن تعلم أن الليل ذاته كان يستمع إليها . في الخارج، كان القصر يلوح على البعد كأنه أسطورة قد خلدها الزمن، مثل طيفٍ من زمن آخر مضى ، يذكّر الجميع بأن الماضي لا يموت ، بل يختبئ في الوجوه والأسماء.

أما الغريب ، فقد نهض من مكانه ، نظر في المرآة المعلقة على الجدار ، فرأى وجهه كما لم يره من قبل : شاحبًا ، مطموس الملامح ، كأنه وجه رجلين في جسد واحد الكونت العاشق والقاتل التائب.

همس يحدث نفسه :

" يا لها من مفارقة... يهرب الإنسان من نفسه ، ثم يجدها تنتظره في بيت الآخرين ".

وفي الأسفل، توقفت جريتا أمام السلم ، تتأمل الضوء المتسلل من تحت بابه ، وشيئًا في قلبها يدعوها لأن تصعد . لكنها سمعت صوت أمها يناديها ، فعادت إلى الداخل ، دون أن تدري أن الغريب كان يراقب ظلها يبتعد ، وابتسامة غامضة ترتسم على شفتيه.

تلك الليلة كانت بداية النهاية ، لا لأهل البيت فحسب ، بل لذاك الرجل الذي حمل في داخله تاريخًا من الخيانة والندم . في صمته كان يسمع صدى ماضيه يعيد نفسه ، كأن الزمن دائرة لا تنكسر .

وفي مكان ما بين الحلم واليقظة ، بين الذاكرة والنسيان ، ظل الكونت بيلاكيس يهمس باسمها...

" ماريا "...

رماد الكونت والكونتيس

سأل الضيف في اهتمامٍ يختلط فيه الفضول بالحذر ، وقد بدا في صوته رجعُ صدى لدهشةٍ لم يشفَ منها بعد:

و كيف أراحه الله منها؟

ابتسم الضابط ابتسامةً باهتة ، كأنها ظلّ ذكرى على وجهٍ أكلته التجاعيد والعمر ، ثم قال وهو ينفث أنفاسه الثقيلة:

لم يكن أحد يتوقع أن تفعل ما فعلت . أنا شخصياً كنت في زيارته قبل الحادث بيومٍ واحد . كانت الكونتس يومها هادئة على نحوٍ مريب ، فيها كبرياءُ امرأةٍ تعرف مصيرها ، وتغافلُ من يُخفي عاصفةً وراء ستارٍ من المودة . قدّمت لي الشراب بنفسها ، وكأنها تودّع آخر ضيفٍ في حياتها ، وكانت تمازح زوجها بلطفٍ مصطنع ، بينما عينيها تراقبانه كما يراقب الصياد فريسته قبل أن يطلق السهم.

وحين دخل السكرتير ليخبر الكونت بوصول الشحنة ، التفتت إليه بنظرةٍ حادةٍ ، فيها شيء من الاشمئزاز والتهديد ، ثم أمرته بالانصراف دون أن تنطق بكلمةٍ زائدة . تلك النظرة وحدها ، والله ، كانت كفيلة بأن توحي لي بأن شيئاً ما يختبئ في ظلال هذا القصر.

قال الضيف وهو يميل برأسه إلى الأمام :

شحنة ؟ شحنة ماذا ؟

تنحنح الضابط وأشعل سيجارة ، ثم أجاب بصوتٍ خفيضٍ كأنما يخشى أن يسمعه أحد من وراء الجدران :

أنا عادة لا أتطفّل على أصدقائي ، لكن صديقي الكونت كان رجلاً كريماً صريحاً . قال لي بأسلوبه الرقيق:

" تعال، تعال يا عزيزي أدولف."

فسألته:

إلى أين يا كونت ؟

فابتسم ابتسامةً غامضة وقال: "لتشرّف معنا نقل البراميل المعدنية التي طلبتها من إحدى الشركات في بودابست".

قلت له مازحاً:

" براميل معدنية ؟ هل هي مليئة بالنبيذ مثلاً ؟ هذا خطأ يا كونت ، فالنبيذ لا يُحفظ في المعدن ".

ضحك الكونت كيس ضحكةً خفيفة ، ثم قال:

" من قال لك إنها للنبيذ ؟ تعال ، سترى بنفسك ".

واصل الضابط حديثه كمن يسرد حلماً ثقيل الظلال :

أمام باب القصر كانت تقف شاحنةٌ صغيرة ، عليها أربعة براميل معدنية ضخمة ، كانت الشمس تضربها فتلمع كأنها دروعٌ لجندٍ من زمنٍ غابر . كان العمال يتصببون عرقاً وهم لا يدرون أين يضعونها ، حتى قال الكونت :

" في القبو ، أيها السادة ، في قبو القصر ".

قلت له وقد تملكني الفضول:

"لكنها ثقيلة يا كونت ، ماذا بها ؟"

أجابني بهدوءٍ مصطنع:

" ستعرف كل شيء يا أدولف ، المهم الآن أن نُنزلها إلى القبو ".

قلت:

" سأعاونهم ".

فقاطعني بسرعةٍ وابتسامةٍ مرتعشة:

" لا ، الأفضل أن تُدحرج على جانبها ، هكذا ، حتى القبو . هيا يا رجال ، وبعدها لا يتخلّف أحد عن الغداء ، أهلاً بكم جميعاً ".

تردّد صدى صوته في أرجاء القصر ، ثم خيّم الصمت بعد أن انصرف العمال . عندها أخذني الكونت إلى القبو ، وكانت رائحة التراب الرطب تمتزج بشيءٍ من الدهن والحديد . نظر إليّ بعينين متّقدتين وقال:

" هيه ، ما رأيك ؟ "

قلت في حيرة:

" الحق يا كونت ، إنني لا أفهم... لماذا وضعت هذه البراميل المعدنية هنا ؟ ماذا فيها ؟ "

قال ببساطةٍ قاسية:

" بنزين ".

كررتُ بدهشة:

" بنزين ؟ " !

قال وهو يضحك ضحكةً باردة:

" أجل ، لسيارتي . كما تعلم ، هي من طرازٍ يستهلك كثيراً من الوقود ، وأنا رجل أحتاط للطوارئ ".

قلتُ له محاولاً المزاح:

" ولا شك أنك تنفق كثيراً من المال على وقودها "!

فأجاب بابتسامةٍ غامضة:

" المال وسيلة ، يا عزيزي ، لا غاية . لكن أحياناً لا تكفي الوسائل وحدها ".

ثم أردف ، وقد خيّم على صوته نغمةٌ فلسفية:

" أتدري يا أدولف ؟ حين يختزن الإنسان الوقود ، فإنه في الحقيقة لا يخزّن البنزين فقط ، بل يخزّن القدرة على الهرب ، على النجاة ، على النجاة من المصير ".

سألته بدهشةٍ:

" من أي مصيرٍ تقصد ؟ "

قال:

" من الحرب، من المرأة ، من القدر ذاته ".

توقفت كلماته عند ذلك الحد ، كأنها اصطدمت بجدارٍ داخلي.

ضحكت محاولاً كسر التوتر:

" إنك لحريص حقاً يا كونت . القبو يسع أكثر من أربعة براميل ، لماذا لا تطلب عشرين مثلاً ؟ "

ابتسم وقال ببرودٍ مريب:

" فكرة ممتازة ، سأفعل ".

ثم غيّر الحديث ، كأنه أراد أن يبعدني عن موضوعٍ لا يحتمل ضوء النهار . لكن شيئاً في نبرة صوته ظلّ عالقاً بذاكرتي ، شيئاً بين التهديد واليأس ، بين الحياة والموت.

+

سكت الضابط لحظة ، وحدّق في الفراغ ، كمن يرى المشهد من جديد بعد سنواتٍ طويلة . قال الضيف في صوتٍ خافت :

و بعد ذلك ؟

تنهد الضابط وقال :

بعد ذلك بيومٍ واحد فقط ، حدث الانفجار. قبو القصر احترق ، ومعه الكونت وامرأته . قالوا إنها هي التي أشعلت النار ، وأنها سكبت البنزين بنفسها ، ثم أغلقت الباب عليهما. قالوا أيضاً إنها كانت تضحك وهي تمسك بعلبة الثقاب . لا أحد يعرف الحقيقة . البعض يظن أنها انتقمت ، والبعض الآخر يظن أنها جنّت.

صمت قليلاً ، ثم أضاف بصوتٍ متكسر:

ربما أراحه الله منها... أو ربما أراحها هي منه . من يدري ؟

رفع الضيف رأسه وقال كمن يخاطب نفسه :

أو ربما لم يُرِح أحداً منهما ، بل تركهما يشتعلان إلى الأبد في ذاكرة هذا القصر.

ابتسم الضابط ابتسامةً مرة ، وقال :

ربما... وربما لم يحدث شيء من هذا كله ، وربما ما زالت البراميل في القبو تنتظر من يشعلها من جديد.

وسكت الاثنان ، وظل في الغرفة صمتٌ يشبه هدير نارٍ بعيدة ، نارٍ لا تُرى ، لكنها تُحسّ في الأعماق ...صمتٌ يلمع فيه الشرر الخفي للعقل البشري حين يحترق ببطء تحت ثقل لأسرار.

+

وهكذا انتهى الحديث ، لكن الأسئلة ظلت تدور في ذهن الضيف ، تطنّ كما تطنّ ذبابة في غرفةٍ مغلقة .

هل كانت الكونتس ضحية ؟ أم جلّادة ؟

هل كان الكونت بريئاً أم متورطاً في لعبةٍ أكبر من رغبته في النجاة ؟ وما معنى " الراحة " حين تأتي على هيئة احتراقٍ كامل ؟

خرج الضيف من بيت الضابط ، والريح تعصف بالأوراق اليابسة عند الرصيف ، وشعر وهو يسير في العتمة أن رائحة البنزين ما زالت تملأ الجو ، وأن النار التي أحرقت القصر لم تنطفئ أبداً ، بل انتقلت إلى داخله ، إلى هناك... حيث يشتعل العقل في صمتٍ تام.

ظِلُّ الكونت... حين يتكسّر النبل

لا غروَ أن كانت ثقيلة... تلك البراميل المصفوفة على أطراف المخزن الكبير ، تنوء تحتها ظهور العمال كأنهم يسحبون قرون التاريخ نفسه لا مجرد صفائح ممتلئة بالبنزين . الهواء كان حادًّا برائحة وقودٍ يشبه رائحة الخوف ، ورائحة الخوف كانت يومئذٍ في النمسا–المجر أكثر شيوعًا من رائحة الخبز.

قال الكونت كيس وهو يرفع حاجبيه في فخرٍ غامض:

دعني أهزّ واحدًا منها لتسمع الصوت... اسمع ...

هزّ البرميل فارتجّ صداه في أذني كأنّ أوروبا كلّها تتلاطم في جوفه . صوت البنزين كان يشبه هدير أمواج سوداء ، أمواج تشقّ طريقها نحو شاطئ الحرب.

سألني الكونت وهو يبتسم ابتسامة لا تخلو من التحدّي :

هيه... ما رأيك ؟

قلتُ بثقة مصطنعة:

مليئة تمامًا يا كونت. ولكن... لماذا تتوقّع أن تنشب الحرب ؟

ابتسم ابتسامة رجلٍ يملك أسرارًا لا يعرفها غيره ، وقال :

لماذا ؟ الجيوش الروسية تتحرّش بجيوش مولانا الإمبراطور فرنسوا جوزيف ، والإيطاليون من الجنوب... ومولانا لا يسكت . السكوت جبن... وأنت تعلم ، إمبراطورنا العظيم ليس جبانًا.

قلت بحماسة مبالَغ فيها ، كأن الكلمات تهرب من فمي قبل أن أفكّر فيها :

حاشا لله أن يكون إمبراطورنا جبانًا !

لكنني سمعت في داخلي همسًا يرتجف

وما شأني أنا ؟ وهل تُرى الحربُ تعرف اسمي ؟ وهل يجرون رجلاً مثلي، في الأربعين، ربّ أسرة ؟

فقلت للكونت بصوتٍ حاولتُ أن ألوّنه بضحكة:

خبرني... إن نشبت الحرب ، هل يُجنَّد أمثالي ؟

ضحك الكونت ، ضحكة ناعمة تليق بالرجل الذي يعرف مكانه في العالم :

لا تخف يا أدولف . أنت وأنا ومن بلغ سنّنا... نحن في أمان.

ثم قال وهو يربّت على كتفي:

تعال... سأخذك في نزهة.

X

في تلك النزهة داخل سيارته الفاخرة ، التي كانت تلمع كأنما تُطلِع الشمس من معدنها ، تحدّث الكونت حديثًا طويلًا ، حديث رجلٍ يُحكِم ربط مصيره بالملك ، وبأوروبا التي تتحوّل إلى قدَرٍ مظلم.

تحدّث عن أملاكه في المجر... عن أصله العريق... وعن الكونتيس ماريا ، زوجته ، كان يتحدث عنها كأنها نجمة انتقلت من السماء لتضيء سقف بيته ، لكنه لم يكن يعلم وهذا ما كان يمزّقني أنّ تلك النجمة كانت تضيء سريرًا آخر أيضًا... سرير سكرتيره الشاب بول بيهاري.

لم أخبره يومئذٍ، لا لأنّي أردت التستّر ، بل لأنّ في داخلي شيئًا ما كان يرفض أن يصدمه... أو ربما يخشى أن ينكشف ضعفه أمام ضعفه.

حكى لي الكونت عن أحلامه الكبرى:

أن تنجب له ولدًا يحمل اللقب ، أن يخلّد اسمه ، أن يضع حجرًا جديدًا في صرح الأسرة الماجياريّة النبيلة ، وكان يقول إن أسوأ أيام حياته هي حين يضطرّ للسفر إلى بودابست لأعماله ويتركها وحيدة في القصر الكبير.

كنت أومئ برأسي ، بينما يهمس داخلي :

وحيدة ؟ بل ليست وحيدة يا صديقي... إنك تتركها في حضن رجل آخر.

لكنّي التزمت الصمت ، وواصلتُ الدور الذي يشبه ظلًّا يمشي إلى جوار سيده.

X

بعد أيام قليلة، زرت القصر ، كان السكون فيه يخنق الهواء ، كأنّ الموت ينتظر على الدرج.

استقبلتني الخادمة الوحيدة، وجهها شاحب والعبرات تكاد تفلت من عينيها:

أرجوك يا سيدي الضابط... اصعد إليه. إنه في غرفة النوم... يفكّر في الانتحار ، لم يذُق طعامًا منذ الأمس.

قلتُ في روعٍ:

ينتحر ؟! لماذا ؟

قالت وهي تمسح دموعها بطرف مئزرها:

كارثة يا سيدي... أرجوك اصعد إليه ، إنه بحاجة إلى صديق.

X

دخلت غرفته دون أن أطرق الباب ، وجدته جالسًا على حافة السرير، رأسه بين كفّيه ، وعلى الطاولة مسدسٌ يلمع كأنه يُمسِك بروحه ، تحت المسدس ورقة مطوية.

رفع رأسه نحوي فبدت عيناه حمراوين كمن بكى عمرًا بأكمله.

قال بصوت منكسر:

انتهى كل شيء يا عزيزي أدولف... لا فائدة ، حياتي انتهت... كيف أعيش بالعار؟ أنا الذي لم أعرف سوى الشرف... ماذا سيقول الناس؟

جلستُ قربه ، أحاول أن أضبط نبضه المتسارع بنبرة هادئة :

يا صديقي... ماذا حدث ؟ هل خسرت ثروتك ؟

قال وهو يضرب صدره بقبضته :

ليت خسرتُ كل ثروتي ! ما حدث... الفاجعة بعينها ، ماذا فعلتُ يا رب حتى أعامل بهذه الطريقة ؟

قلت:

من تعني ؟

أشار بيده المرتجفة نحو الورقة :

خذها... اقرأ وثيقة عاري .

فتحت الورقة . سطران فقط . لكنهما كانا كافيين لإسقاط جبل.

قلت بذهول:

يا إلهي... الكونتس فرت ؟

هزّ رأسه هزّة رجلٍ يتلقّى آخر طعنة :

أليس هذا ما كتبته ؟ فرت مع الوغد بيهاري... سكرتيري!

قلت محاولاً أن أطفئ النار :

محزن... لكنه يحدث ، كثيرون خانتهم زوجاتهم... وصمدوا.

قال بحرقة تكاد تشق قلبه :

ولكني أحببتها يا أدولف ! رفعتها من منزلتها الوضيعة... أعطيتها اسمي... أسرتي ! كيف تخونني ؟ ماذا سيقول أهل القرية ؟

كنت أعرف أنّ أهل القرية يعرفون... يعرفون منذ أشهر ، حتى زوجتي كانت تعرف ، قلت له بصوت خفيض :

أهل القرية... كانوا يعرفون ...

رفع رأسه فجأة ، كمن أفاق من كابوس أسود :

ماذا ؟! وأنت ؟ كنت تعرف ؟

قلت:

نعم... من زوجتي.

صرخ صرخة تصعد من أعماق الرجل المكسور :

يا للعار... فضيحتي على كل لسان ! وأنت يا أدولف... أنت صديقي الوحيد... تكتم عني ؟ !

قلت أدافع عن نفسي :

كنت أظنها نزوة عابرة... وأنها ستنتهي .

ضرب الطاولة بقبضته :

ولكني وثقت بك! كلما سافرت إلى بودابست قلت لك: أستودعك القصر... القصر يا أدولف!

قلت بصدق خرج من قلبي :

وأوفيتُ الوكالة يا صديقي. القصر... وليس مالكة القصر. لو طلبت مني مراقبتها لفعلت ، لكنني... لم أكن مخوَّلًا بفضح امرأة بيتك.

نظر إلي نظرة طويلة... طويلة حدّ أني سمعت أفكاره.

سمعت صوته الداخلي يصرخ خنتَ ثقتي ، أم أنك فقط خائف من أن تكون شاهدًا على تمزّق بيت رجلٍ أرفع منك ؟

ولم أجبه ، لأنّ تيار وعيي أنا أيضًا كان يغرق.

X

قال الكونت بصوت متحشرج :

إذا سألك الناس عن سبب انتحاري... فقل لهم...

قاطعته:

انتحار ؟! لا ، لن أدعك ، النساء كثيرات يا صديقي ! انسَ تلك الغادرة... عِش حياتك كما يعيش الأثرياء . أنت بصحة جيدة ، والعمر أمامك ، بل إن شئت... أزوّجك ابنتي غريتا! يشرفني...

لوّح بيده كمن يصدّ عن صدره سكينًا :

لا يا صديقي... لا ، عزفتُ عن النساء جميعًا ، سأعيش... لأجل صداقتنا ، لكن... بقلبٍ كسير ، فقط... فقط دافع عن سمعتي إذا تكلّم الناس.

سكتَ.

وبدأ صوت داخلي يتكلّم... لا أعرف هل هو صوتي أم صوته أم صوت التاريخ نفسه:

يا أدولف... هل سيترك التاريخُ رجلًا يُنكسر ؟ هل يترك الإمبراطور جنوده حين تغدر بهم الحرب ؟ وهل الغدر في الخنادق أشدّ أم الغدر في الفراش؟

X

على الطاولة ، كان المسدس يلمع.

وكانت الورقة ترتجف في يدي .

وكان الكونت كيس جالسًا بين الضوء والظل... بين رجلين: رجلٍ كانه ، ورجلٍ سيكونه بعد هذه اللحظة.

قلت :

صديقي... أعدني. أعدني أن تترك السلاح . أن تخرج من هذا الضباب . أنت لست أول رجل تُخونه امرأة«...

قاطعني :

لكنها خيّنتني مع شابٍ أدخلته بيتي... بتزكية مني ! هل تفهم ماذا يعني هذا ؟

لم أجد جوابًا.

لكن تيار الوعي في داخلي كان يهمس :

نعم أفهم... أفهم لأنّني كنت أعرف... ولم أُنبّهك. كنتَ ترى فيها ملاكًا ، وكنت أرى ظلّ الشيطان خلفها... وصمتُّ. من المسؤول إذن ؟ هي ؟ أم أنا ؟ أم أنت ؟

X

وقف الكونت فجأة.

مشاهده الداخلية كانت تُسمَع في صرير خطواته:

كيف يخونني قلبي ؟ كيف لم أرَ ؟ كيف ينهار بيت قائم منذ أجيال بسبب نظرة امرأة ورجلٍ وسيم ؟

رفع المسدس من على الطاولة. ارتعشت يدي.

سمعت داخلي صيحة مكتومة : إنه ينتظر كلمة واحدة لينجو... قلها!

قلت :

العار ليس في خيانتهم... العار أن نستسلم لهم.

نظر إليّ طويلًا ، كأنه يحاول أن يرى صدقي من بين تجاويف جمجمتي. ثم قال:

أدولف... هل سيغفر لي التاريخ؟

قلت :

التاريخ لا يغفر يا صديقي... لكنه ينسى أحيانًا .

ابتسم ابتسامة واهنة .

ثم جلس . ووضع المسدس على الطاولة من جديد.

X

في الخارج، كان الليل يهبط على القصر كما تهبط يدٌ ثقيلة على كتف رجلٍ يوشك أن ينهار.

على الحدود الشرقية كانت المدافع الروسية تتهيأ ، وعلى الحدود الجنوبية كان الإيطاليون يشحذون سيوفهم .

وأوروبا كلها تقف على حافة جرحٍ يشبه جرح الكونت كيس.

أما أنا... فقد غادرت القصر تلك الليلة ، وتركت خلفي صديقي كمن يترك طفلاً في غرفة مظلمة .

كنتُ أشعر أن النهاية لم تُكتَب بعد... لا نهايتي ولا نهايته.

وكنتُ أعلم أنّ الحرب حين تندلع لن تسألني عن عمري، وأن صداقة الكونت لن تبقى كما كانت... وأنّ العالم كله يتصدّع مثل قلب رجل واحد.

X

وفي صباح اليوم التالي ...وصلني خبر.

لم يقل الرسول إن كان الكونت قد مات أم لا.

قال فقط:

تعال سريعًا... حدث أمرٌ جلل .

فوقفتُ بين الطريق والقصر... بين الخوف والواجب... بين الصداقة والعار ... وأدركت أن القصة لم تنتهِ.

وأنّ الظلّ الذي سقط في غرفة الكونت... لم يكن ظلّ امرأة هاربة فحسب، بل ظلّ عالمٍ بأكمله يوشك أن يسقط.

وهكذا تبدأ النهاية... أم لعلّها مجرد بداية أخرى.

ظلال البنزين... وظلال القلوب

عندما روى ضابط الصف ترويير حكايته ، كان الغريب يصغي كما لو أنه يستمع إلى وشوشة الريح بين نوافذ البيوت الموحلة ، لا إلى اعترافات رجل ريفي بسيط . كان الليل يتهدّل فوق القرية مثل عباءة راهب ، وستائر الضباب تحيط بالبيوت الحجرية . وفي الصباح ، حين انطفأت آخر نجمات الفجر ، قرّر الغريب أن يغادر .

دار دورة واسعة حول قصر الكونت بيلاكس ؛ قصرٌ ذو نوافذ عالية كعيون متربّصة ، وواجهة غامضة تحمل آثار حقب مرّت عليه كجرح قديم لا يندمل . ثم عاد إلى ضابط الصف ، وربت على كتفه.

أعتقد أنّه آن لي أن أغادر القرية يا عزيزي الضابط .

رفع ترويير رأسه ، وكان في ملامحه شيء من الحرج:

لقد أكرمتني بنزولك في بيتي... ولكن كيف تغادر دون أن تنتظر عودة الكونت من بودابست ؟

ابتسم الغريب ابتسامة خفيفة كمن يعرف ما لا يريد أن يقوله :

أظنّ أنّ غيبته ستطول هذه المرة... بالمناسبة ، ألم يحدّثك يومًا عن شخص يُدعى مانيل ؟

تجمدت ملامح الضابط قليلاً :

تعني عنك ؟ أوراقك التي أعطيتني إيّاها تقول إنّ اسمك فريتز مانيل. كلا... لم يذكر الاسم قط.

مرّت سحابة فوق وجه الغريب ، كظلّ لذكرى قديمة :

كنتُ صديق الكونتس ماريا... قبل أن يخطفها منّي الكونت بيلاكس. لكن لا بأس... لقد شرب من الكأس نفسها . خدعتنا معًا . لم تكن سوى راقصة ملهى رخيص في بودابست.

نظر الضابط إلى الأرض كمن يقلب في التراب أسرارًا ليست له :

صحيح أنه ظلّ شهرين أو ثلاثة في حزن شديد... لكنه سرعان ما عاد إلى طبيعته . عاد إلى متعة الألوان وإقباله العجيب على الحياة .

رفع الغريب حاجبًا واحدًا :

كيف ؟

وهنا، بدأت ذاكرة الضابط تشتغل كما لو أنّه يفتح بابًا في قبو ذهنه... بابًا يقود إلى ليلة لم تغادره.

X

كنتُ أتناول العشاء معه تلك الليلة . كانت الشموع ترتعش على المائدة ، والكونت أمَلٌ معطوب يخبّئ جراحه خلف ضحكات رقيقة . فجأة توقفت شاحنة أمام القصر، ودخل السائق بانحناءة :

البراميل في السيارة، يا كونت.

أضاءت عينا الكونت كمن عثر على كنز.

كم عددها يا صديقي ؟

عشرون برميلاً تمامًا كما طلبت.

قال له الكونت بحنان غير مفهوم :

انتظر حتى نتمّ العشاء... ثم ننزل معًا لإدخالها إلى القبو.

ولأنني أردت خدمته ، قلت :

سأقوم أنا بالمهمة يا كونت . هل معك رجلان أو ثلاثة ؟

هزّ السائق رأسه بأسف :

ليس معي أحد ، يا سيدي الضابط.

مدّ الكونت يده نحوي كمن يمنع طفلًا من لمس شيء خطير :

كيس ، لن نتركه وحده . لنُنْهِ العشاء ونساعده.

غادر السائق ، والتفت الكونت إليّ ، مبتسمًا بسعادة طفل:

ها أنتَ تأخذ بنصيحتي... عشرون برميلاً !

ثم قال وهو يضحك بصوت مرتفع :

الحرب على الأبواب يا أدولف... وستكون أزمة الوقود أعظم مما يتوقعون . أما أنا... فسأكون في مأمن.

ضحكت بدوري .

كان الرجل يظنّ أن البنزين هو ما سيحميه من العاصفة القادمة ، لا يدري أنّ ما سيغرق قصره ليس نقص الوقود... بل فائض القلوب المحترقة.

نزلنا إلى القبو. كان المكان رطبًا ، وباردًا كصدر التاريخ حين يخبّئ فيه أسرار الحروب . رصصنا البراميل العشرين إلى جوار الستة الأخرى. ستة وعشرون برميلاً من البنزين ، ثروة في زمن يختبئ فيه الجوع والخوف في جيوب المستقبل.

وبعد تلك الليلة، تغيّر الكونت. عاد إلى نسائه، إلى مغامراته، إلى ضجيج الحياة الذي يسحق في الطريق كل هشاشة.

X

هنا توقف الضابط كمن يلتقط أنفاسه . سأله الغريب بصوت خفيف :

كن كثيرات إذن ؟

أجل... كثيرات . كلما عاد من بودابست عاد معه جمال جديد . لم يكنّ شابات... أغلبهنّ في منتصف العمر . ثريات . أنيقات . جميلات بطريقة ناضجة... كأنهنّ زهور متأخرة في موسم طويل.

أَوَلَم يختر واحدة للزواج ؟

كلا. كان يكتفي بإقامتهن أيامًا قليلة... ثم يعود وحده . دائمًا وحده.

X

ساد صمت غريب...

ذلك النوع من الصمت الذي تأتي بعده كلمة تغيّر مسار الحكاية.

الغريب كان ينظر إلى القصر البعيد ، إلى نوافذه التي تلمع كالعيون المترقبة . وعندما تكلم، كان صوته كخيط ينساب من فجر قديم:

أتعلم يا ترويـر... إن بيلاكس لم يخطف ماريا مني فحسب. لقد أخذ مني شيئًا آخر : نفسي القديمة . كان يعرف ما أريد قبل أن أريده . كان يراني قبل أن أراه . حتى حين أحبّتني ماريا... كنتُ ظلًّا ، وكان هو الضوء الذي تتبعه . النساء... المال... الحرب... البنزين... كل شيء لديه كان يُخزّنه خوفًا من المستقبل ، لكنه لم يخزّن يومًا قلبًا واحدًا.

ثم أضاف بعد لحظة :

حين أراكم تتحدثون عنه... أشعر كأنّي أحادث شبح رجل... لا رجلًا.

ارتجف الضابط قليلًا . كان يتساءل إن كان الغريب يلمّح إلى شيء لا يعرفه أحد في القرية.

X

دخل الغريب في صمته الخاص. صمت يشبه تيارًا داخليًا ، كأنه يغوص في أعمق غرفة في عقله . هناك ، كان يرى ماريا : وجهها ، خطواتها ، ضحكتها التي كانت مثل موسيقى قادمة من عصر آخر... كان يرى بيلاكس ، يرى نفسه ، يرى البراميل... البراميل كرمزٍ لكل ما خزّنه الكونت من خوف ، وكل ما خزّنه هو من خسائر.

هل كان يمكن أن تحدث الأمور بشكل آخر ؟

لو أنّي وصلت قبل بيلاكس... أو لو أنّ ماريا لم تخنه... أو لو... أو لو...

لكنّ العقل لا يسير إلى الوراء ، بل إلى عمق الجرح.

كان يشعر أن شيئًا ما في القصر ينتظر نهاية لم تُكتَب بعد. شيئًا ثقيلًا ، خامدًا... مثل برميل بنزين في قبو رطب.

X

قال الغريب فجأة :

ترويـر... ما الذي تعرفه عن آخر رحلاته إلى بودابست ؟

تردّد الضابط ، ثم قال :

كان مختلفًا... صامتًا أكثر من المعتاد. لم يأخذ معه امرأة هذه المرة. قال إنه سيعود سريعًا... لكنه لم يعد.

وهل تعرف ماذا كان ينقل في رحلته الأخيرة ؟

لا... لم يقل لي.

ابتسم الغريب ابتسامة ضيقة :

كان يبحث عن ماريا.

شهق الضابط :

بعد كل هذه السنين ؟

نعم... بعد كل هذه السنين. أحيانًا ، حين يخسر الإنسان كل شيء... يتشبث بما جرحه .

ثم وقف ، وأغلق سترته كمن يستعد للرحيل عن قرن كامل ، لا عن قرية صغيرة.

ترويـر... إن اختفى الكونت ، فلأن الماضي قرر أخيرًا أن يسترده .

ماذا تعني ؟

لم يجب الغريب . اكتفى بأن رفع بصره نحو القصر . الريح مرّت بين النوافذ ، وبدت الواجهة كأنها تبتسم ابتسامة غامضة.

قال الضابط في حيرة :

ستغادر إذن ؟

نعم.

ثم أضاف بصوت أقرب إلى الهمس :

لكنني ربما أعود... إذا لم يسعف الزمن أحدنا.

تعود لماذا؟

لأن بعض القصص يا ترويـر... لا تكتمل إلا حين تشتعل .

لم يفهم الضابط ، لكن الغريب كان قد بدأ يسير . خطواته ثابتة ، لكنها محمّلة بظلال ثقيلة . وقبل أن يبتعد تمامًا ، التفت مرة أخيرة:

إن دخلت القبو يومًا... فافتح النوافذ. الهواء هناك خانق... وخطر.

ثم مضى.

X

وعندما اختفى بين الأشجار ، كان الضابط واقفًا في مكانه ، يشعر بأن الكلمات الأخيرة تحمل ما هو أكثر من مجرد نصيحة.

شيء ما كان ينتظر في القبو.

شيء رائحته تشبه البنزين... وطعمه يشبه القدر.

و هكذا بقي القصر على تلطّفه الخارجي ، يخبئ في أعماقه براميل... وحكايات... وغيابات.

أما الغريب، فكان يمشي نحو طريق لا يعرف أحد إلى أين يقوده.

بينما ترك النهاية معلّقة... كالعود الأخير في أغنية لم تكتمل.

براميل الليل الأخيرة"

عاد الرجل الغريب إلى بودابست ، كما لو أنه يعود إلى جرحٍ قديم لم يلتئم قط . كان الشتاء يهبط على المدينة في تلك الأيام هبوطًا صامتًا ، وفي الهواء رائحة الفحم المختلط بقلقٍ قديم يوشك أن ينهض من نومه . جاء يبحث عن حبيبته القديمة ، زوجة الكونت ، التي ، كما زعم ، فرت مع سكرتيره . لم يكن أحد يعرف أيهما الحقيقة وأيهما الوهم : الهروب أم الخيانة ، أم أن عينَي الرجل الغريب كانتا تحملان من الأسى ما يكفي لتصبح كل رواياته قابلة للتصديق.

أما الكونت كيس، فقد بدا وكأنه يتهيأ لوداعٍ يدرك أنه لا يشبه الوداعات السابقة . كانت سماء أوروبا آنذاك تمتلئ بغيمٍ ثقيل ، غيم من الكلمات الغاضبة والخطابات الحربية والحدود التي ترتجف . ثم انفجرت الحرب العالمية الأولى تمامًا كما توقّع الكونت في أمسيات كثيرة ، حين كان يجلس أمام مدفأته ، يحدّق في خرائط قديمة ويقول لأدولف الضابط الساذج:

العالم يتجه صوب الهاوية... وستسحب معها كل من يظن أنه نجا.

ومع الأيام ، امتدت يد الإمبراطور فرنسوا جوزيف إلى كل شباب البلاد المستعمرة، يزج بهم في أتون الحرب ، وفي الشوارع كانت الأمهات يودّعن أبناءهن كما لو أنهن يودّعن الزمن نفسه . ومع كل هزيمة للنمسا التي هرمت ، ازداد الجشع إلى الجنود ، حتى صدر الأمر بتجنيد الجميع حتى سن الخامسة والأربعين.

وذات صباح، جاء الدور على الكونت.

X

دخل الضابط أدولف القصر بخطوات مترددة. كانت أصداء صرير الباب تتردد في ردهات القصر كما لو أنها تعلن حدثًا خطيرًا . وجد الكونت كيس واقفًا أمام نافذة تطل على بستان الشتاء ، يداه خلف ظهره ، وعيناه بعيدتان في شيء لا يراه سواه.

قال أدولف بنبرة تجمع بين الخجل والدهشة :

كونت... أنت لست شابًا يا صديقي. كيف يعقل أن تُستدعى الآن ؟ كيف تعرض نفسك للهلاك ؟

التفت الكونت ببطء ، وكان في عينيه شيء يشبه ابتسامة رجل يعرف أن القدر قد كتب سطوره الأخيرة :

وماذا في استطاعتي أن أفعل يا صديقي ؟ هل تظن أني قادر على إسقاط اسمي من قائمة المطلوبين ؟

تمتم أدولف:

هذا... مستحيل، للأسف . لقد أخذها مندوب التجنيد النمسوي...

تنفس كيس بعمق ، ثم قال:

اذكرني بخير يا صديقي.

اقترب أدولف خطوة ، وبدا كأنه يريد أن يقول شيئًا يعترض به على العالم كله ، لا على ورقة التجنيد فقط :

لن أنساك أبدًا ، يا سيدي. هل... هل أعرض القصر للإيجار حتى تعود إليه بالسلامة؟

هز كيس رأسه بسرعة :

كلا ، كلا . القصر في عهدتك . أتركه في رعايتك حتى أعود . لا تدع أحدًا يقترب منه أبدًا.

ثم ، وكأنه تذكّر فجأة أمرًا يخفي خلفه سرًا قديمًا ، قال في سرعة:

هل أبيع براميل البنزين لحسابك ؟

سأله أدولف.

انتفض الكونت :

إيّاك أن تفعل هذا! اسمعني جيدًا ، سأعود قريبًا... الحرب لن تطول أكثر من شهور قليلة. أدولف... أوصيك... البراميل... لا تدع أحدًا يقترب منها أبدًا ، مهما حدث. هه ؟ عدني بذلك يا صديق العمر .

وفي حماس مشوب بالغرابة ، وضع أدولف يده على صدره وقال :

أعدك يا أعز الأصدقاء . أعدك بشرفي العسكري.

X

عندما بقي الكونت وحده بعد مغادرة أدولف ، خيم على القصر صمت ثقيل . صعد الدرج ببطء ، وكأن كل درجة تُذكّره بسنواتٍ مضت فوق كتفيه . كان يفكر :

هل هذه هي اللحظة التي كنت أراها في أحلامي منذ سنوات ؟ حلم الحرب ، حلم الدخان والوجوه المطموسة... لقد جاء . يأتي كل شيء في النهاية . حتى الأسرار المدفونة تحت ألواح الأرض ، حتى البراميل التي تحرس الليل منذ زمن.

وأنا ؟ أنا رجل فقد نصف حياته في الانتظار . انتظرت سلامًا لم يأتِ ، حبيبة لم تعد ، ثم انتظرت نهاية إمبراطورية كنت أعرف أنها تتناهش من الداخل. والآن... عليّ أن أذهب مع الرجال الصغار إلى حرب أكبر من أعمارنا كلها.

وقف أمام باب غرفة مغلقة منذ سنوات طويلة . غرفة زوجته . وضع يده على المقبض ، لكنه لم يفتحه.

لو فتحت الباب الآن ، لخرجت كل الأشباح . صوتها ، ضحكتها ، خطواتها وهي تهرب... مع من ؟ مع السكرتير ؟ أم مع حلم لن أجده أنا أبدً ا؟

أغمض عينيه .

لِمَ عاد ذلك الرجل الغريب إلى بودابست ؟ هل يريدها حقًا ؟ أم يريد شيئًا آخر ؟ شيء يعرفه هو... وتخشاه أنا ؟

X

في مساء أخير قبل الرحيل عن القصر ، طرق الرجل الغريب باب الكونت . كان يحمل نظرة رجلٍ جاء ليودّع شيئًا لا يملك حتى حق وداعه.

قال الغريب:

سمعت أنك ستذهب إلى الجبهة يا كونت.

أجابه كيس:

تبدو الأخبار أسرع من الريح هذه الأيام.

جلسا في صالة القصر الكبيرة. كان الضوء الأصفر ينعكس على وجهيهما ويصنع ظلالًا ترتجف كأنها جزء من الحوار.

قال الغريب:

أحيانًا أفكر... هل الحرب عقاب أم فرصة ؟

ابتسم الكونت ابتسامة خافتة :

كلاهما. وفي كلتيهما يخسر الناس .

هل تبحث عن زوجتك؟

سأله كيس مباشرة.

تصلّب وجه الغريب :

نعم... لا أعرف . ربما أبحث عنها ، وربما عن نفسي التي ضاعت يوم رحلت.

ولماذا جئت إليّ ؟

لأنك آخر من رآها . ولأنني أسمع أنك... تخفي أشياء كثيرة في هذا القصر . أشياء أثمن من الحب.

لمعت عينا الكونت بحدة .

ما الذي سمعتَه بالضبط ؟

براميل البنزين ، الكونت. يقول الناس إنها ليست بنزينًا فقط. وأنك تخشى أن يقترب أحد منها .

ساد صمت طويل ، حتى بدا أن عقارب الساعات توقفت.

قال كيس أخيرًا :

هناك أشياء لا يُفتَح بابها إلا إذا كنا مستعدين لتحمل عواقبها . وأنت لست مستعدًا.

توقف الغريب لحظة ، ثم قال بصوت منخفض :

ربما أنت أيضًا لست مستعدًا .

X

في الليلة التي تسبق سفره إلى الجبهة ، تجول الكونت في أروقة القصر كما لو أنه يودّع ذاكرة ، لا حجرًا. وقف أمام البراميل الضخمة في القبو ، ولمسها بيده. كانت باردة ، ثابتة ، كأنها تحرس سرًا منسيًا.

لو متُّ في الحرب... من سيعرف الحقيقة ؟ هل سيكتشفها أدولف ؟ الرجل الغريب ؟ أم ستبقى البراميل صامتة للأبد ؟ .

سمع فجأة أصوات عسكرية خارج القصر . جاءوا لأخذه.

وقف أمام الباب ، تنفّس بعمق، ثم قال للقصر كما لو أنه يخاطب كائنًا حيًا:

احفظ أسرارك... كما حفظتني.

X

اقترب أدولف بخطوات مرتبكة ، يرفع قبعته ويقول بصوت متهدّج :

سأحرس القصر يا سيدي... لا تخش شيئًا.

وضع الكونت يده على كتفه :

البداية ليست في الحرب يا أدولف... بل هنا . في القصر . في البراميل. تذكر هذا.

أعدك، يا سيدي. لن يقترب أحد منها.

ابتسم الكونت ابتسامة غامضة، ثم صعد العربة العسكرية.

X

منذ ذلك اليوم، ظل الرجل الغريب يتردد على أطراف القصر، يراقب النوافذ المنتفخة بالأسرار . وأدولف ظل يحرس القصر كجندي يحرس قلب صديقه ، بينما كانت الحرب تلتهم أوروبا بلا توقف.

وفي القبو ، بقيت البراميل في الظلام، كما لو أنها تنتظر شيئًا.

انتظارًا لا يعرف أحد لمن...

للعودة ؟

للانفجار ؟

للحقيقة ؟

لا أحد يعرف.

فالحرب تغيّر كل شيء .

حتى الأسرار.

حتى القلوب.

حتى القصور التي تتنفس الليل.

وتبقى الأسئلة معلّقة، كما تُعلّق الحروب نهاياتها فوق رؤوس البشر

. أسئلة بلا اجابة ، اسئلة تنتظر جواب من القدر .

قبلةٌ لا تُرى... وليلٌ لا آخر له

لم تكن قرية شينكوتا قد عرفت قبل ذاك الربيع الدامي من عام 1916 معنى الفقد الحقيقي. كانت القرية ، برغم فقرها وابتعادها عن جبهات الحرب ، تعيش في كنف وهمٍ لطيف : أنّ الشر بعيد ، وأنّ أصوات المدافع لا تصل إلا محمولة على الريح . غير أنّ اسمًا واحدًا كان يشقّ هذا الوهم بضوءه : **الكونت بيلاكس**، ذاك الذي غاب في الحرب حتى ظُنّ أنّه صار من شهدائها.

لكن... كل شيء في هذا العالم يأخذ شكلاً آخر حين يُضاء من زاوية مختلفة.

1مايو 1916: إعلان الفقد

في صباح رمادي من أيام مايو ، جاء الخبر كحجر يُلقى في بئر راكدة :

بيلاكس... مفقود في معركة الراين.

وقف ضابط الصف **أدولف ترويير** أمام باب القصر ، متخشبًا كجندي على تخوم الحداد . وضع باقة ورد كبيرة قرب الباب الخشبي العتيق ، ثم ظل ينظر إليها كأنه يودّع صديقًا لا يزال له في صدره نبض . كان الكونت بالنسبة له شيئًا أكثر من رجل... كان أسطورة صغيرة تتهادى فوق ضفاف قريتهم.

أكان طيبًا حقًا ؟ أم كنتُ أرى فيه ما أردتُ أن أراه ؟ هل يُمكن أن يخدعنا البشر إلى هذا الحد ؟ أم نحن من نخدع أنفسنا ؟

يا لغيابك، يا كونت... وغريبتنا نحن البشر: نبكي الغائبين قبل أن نعرف من يكونون حقًا.

X

بعد أسابيع ، انحدرت إلى القرية لجنة مصادرة عسكرية نمساوية:

جنود متجهمون ، أختام رسمية ، دفاتر ضخمة ، والعبارة التي كرهوها جميعًا:

"باسم المجهود الحربي، تُصادر"...

عندها تذكر ترويز كنز القصر: ستة وعشرون برميلًا من الوقود في القبو.

ركض إلى رئيس اللجنة بحماسة طفلٍ يقدم هدية لوالده :

سيدي الكولونيل... تكريمًا لذكرى صديق القرية الراحل، اسمح لي أن أقدم للجنة هدية لا تقدّر بثمن... إنه البنزين! ستة وعشرون برميلًا ممتلئة! ومعها سيارة توربيدو أيضًا!

رفع الكولونيل حاجبًا مرتابًا:

بنزين؟ أنتم محظوظون يا أهل شينكوتا... وأين هو؟

في القبو يا سيدي... تعال معي، لعلّي أؤدي للكونت ما كان سيؤديه بنفسه لو لم يمت في سبيل الوطن.

كان في صوت ترويز صدقٌ مؤلم... وعمى أكثر إيلامًا.

X

نزل الكولونيل ومن معه السلالم الحجرية المبتلّة.

القبو مظلم... رطب... بارد كضريح.

كانت البراميل مصطفّة كجنود بلا وجوه.

طرق الكولونيل أحدها، فخرج صوت مكتوم يشبه أنين شيء حيّ. هزّ برميلًا آخر ، فاهتز السائل في داخله.

لكن تحت أحد البراميل... كان هناك أثر تسرب... بقعة جافة... ولون غريب.

انحنى الكولونيل، لمس البقعة، رفع أصابعه إلى أنفه، وتغير وجهه:

هذا... ليس بنزينًا.

ماذا إذًا يا سيدي؟

سأله ترويز بقلق.

فتح الكولونيل البرميل.

وعندها انطلقت رائحةٌ لا تشبه رائحة الوقود...رائحة موت... موت قديم... منسي.

صرخ الملازم:

سيدي! جثة امرأة !

وفي تلك اللحظة... انكشف الظلام الذي ظلّ مختبئًا تحت القصر سنين.

X

خرج الرجال واحدًا تلو الآخر يحملون الرعب في عيونهم. برميلٌ بعد آخر ...حتى تكوّم أمامهم تاريخ سرّي مرعب:

ستة وعشرون جثة لنساء من بودابست...

جسد رجل واحد... اتضح أنه **غرتبر الكونت بول بيهاري**. ثم في البرميل المجاور... جثة زوجته **الكونتس ماريا**، تلك التي ادعى زوجها أنها "هربت مع السكرتير."

كانت الحقيقة أكثر فظاعة مما يتخيله عقل ريفي بسيط.

كان **بيلاكس** يغوي النساء ، يسرقهن ، يخنقهن ، ثم يضعهن في براميل الكحول تحت القصر كأنهن مقتنيات شيطانية.

سنة بعد سنة... برميلًا بعد برميل... إلى أن صار عدد الضحايا **خكسا وعشرين امرأة و رجل** .

X

جلس ترويز على حافة السلم ، محني الظهر ، كأن السنوات التي قضاها يمدح الكونت سقطت فوق كتفيه دفعة واحدة.

اقترب منه المحقق:

ما الذي تشعر به الآن، يا ترويز ؟

رفع الرجل رأسه بصعوبة ، كأن الكلمات حجارة في فمه:

تصوّر يا سيدي... كنتُ أظنه بطلاً. كنتُ أراه عبر نافذة غير نافذته... لم يكن الكونت سوى نصّاب معروف لدى شرطة فيينا.

لكنه مات في المعركة على أي حال... أليس في ذلك عزاء؟

هزّ ترويز رأسه:

مات؟ كلا... لقد فرّ. ترك جنوده في لحظة حاسمة وهرب. اعتُبر مفقودًا ، لكن الحقيقة أنه اختفى كما يختفي اللص في الظلام.

إذًا نجا من جرائمه؟

أجل يا سيدي... نجا منها ستًا وعشرين مرة ، ونجا منها جميعًا.

ألم تطارده الشرطة بعد الحرب؟

طاردته... لكن بلا جدوى. آخر خبر وصل أنهم وجدوه في الفرقة الأجنبية الفرنسية .أنت تعرفها... تجمع كل القتلة والمجرمين وسافكي الدماء. ومن يختفي في تلك الفرقة... يصبح ظلًّا بلا اسم.

تنهد ترويز ثم قال:

وفي 1919... حوكم غيابيًا، وصودر القصر. وعندما نقبوا تحت بلاط قاعة الجلوس... وجدوا **ثلاث جثث أخرى**.

غطى وجهه بيديه:

يا إلهي... وأنا الذي كنت أريد أن أزوجه ابنتي غريتا...

X

كيف خدعني ؟ أكنتُ أرى فيه ما ليس فيه ؟ أين يبدأ اللطف ؟ أين ينتهي الشر ؟ هل يمكن لإنسان أن يحمل وجه ملاك... وقلب ذئب ؟

وهل نحن نُجبر أنفسنا على الإيمان بالخير حتى لو كان الشر يلوّح أمامنا كل يوم ؟

غريتا... يا ابنتي... كيف كدتُ أسلمك إلى قاتل ؟ هل كنتُ سأغفر لنفسي لو حدث ؟لا... لا شيء في هذا العالم يغفر.

X

كانت أوروبا في تلك السنين تغلي : دول تنهار ، حدود تُرسم بالدم ، رجال يغيبون في الخنادق ، نساء يملأن الأرصفة بالبكاء . ولم يكن أحد في العالم يتخيل أنّ أسوأ ما يحدث ليس فقط على الجبهات... بل في قبو قصر مهجور في قرية صغيرة منسية.

عندما انفجرت الفضيحة في الصحف الأوروبية، لم تجد سوى عنوان واحد يلخص كل شيء:

"قضية قبلة الموت"

فاسم كيس أو Kissفي الإنجليزية يعني "قبلة." قبلةٌ تحولت إلى رمز لجرائم لا تشبه إلا ظلامًا لا يعرف الشبع.

X

لم يُعثر على بيلاكس بعدها.

لم يظهر جثمانه ، لم تُلتقط له صورة ، لم يتحرك ظلّه تحت ضوء أي شاردة.

قيل إنه أصبح مرتزقًا في شمال أفريقيا...

وقيل إنه قُتل في معركة صغيرة مجهولة...

وقيل إن أحد زملائه في الفرقة الأجنبية قتله في شجار وسرق أوراقه...

وقيل إنه تنكر باسم جديد وتزوج امرأة لا تعرف عنه شيئًا...

ولم يكن أحد قادرًا على التمييز بين الحقيقة والأسطورة.

X

الناس تحب الأساطير... وأنا صرت أسطورة.

ستة وعشرون قبلة... ستة وعشرون نومًا عميقًا في براميل باردة.

ظننتم أن الحرب تخلق الوحوش ؟

كلا... الوحوش تُولد بيننا ، تأكل من موائدنا ، وتشرب من كؤوسنا ، وتبتسم لنا بوجوه لا تُشبهها.

هل أنا نادم ؟

لا أعرف... لا أعرف معنى الندم.

لكنّ الليل طويل... طويل جدًا... وأحيانًا، حين أغفو... أسمع طرقًا على برميل في قبو بعيد... فأستيقظ فزعًا... كما لو أنّ الموت يتذكرني.

X

في مساء غريب من خريف 1920، شوهد رجل طويل القامة يرتدي معطفًا أجنبيًا عند أطراف شينكوتا.

توقف للحظة، نظر نحو القصر البعيد، ثم اختفى في الضباب.

لم يعرفه أحد . لم يتحدث إليه أحد.

لكن ترويز ، الذي رآه من بعيد، قال وهو يرتجف:

كانت تلك مشيته... مشية الكونت بيلاكس...

ولم يُعرف بعدها إن كان ما رآه رجلًا... أم ذكرى... أم شبحًا عاد ليقف على أطلال قِبلته الأخيرة.

ويبقى السؤال معلّقًا في هواء التاريخ:

هل مات بيلاكس حقًا؟

أم أنّ الوحوش التي تتقن التخفي... لا تموت إلا حين ننساها؟